سَلِ الناسَ إني سائلُ الله وحدَه وصائنُ عِرضي عن فُلانٍ وعن فُلِ[١]

وقال آخرُ: [من الرجز]

نادَوهُمُ أن ألجِموا ألا تا قالوا جميعاً كلُّهُمْ بلى فا[٢]

أراد: ألا تركبون؟ قالوا: بلى فاركبوا.

وقال آخر: [من الرجز]

قلنا لَها قِفي فقالت قاف[٣]

تريد: وقفتُ.

وقال آخر[٤]: [من الرجز]

خرجتُ من عِندِ زيادٍ كالخَرِفْ تَخُطُّ رِجلايَ بخطٍّ مختلِفْ

تُكتِّبانِ في الطريقِ لامَ الِفْ

ولم يقل لاماً ولا ألفاً، ومن هذا كثير

ذكر ملوك الحيرة

وعُمّرت الحيرةُ في زمن عَمْرو بن عدي بن أخت جَذيمةَ الأَبرش، فاتَّخذها منزلاً، فأقامت عامرةً خمسَ مئة سنة إلى أن وضع المسلمون الكوفةَ. وكانت الحيرةُ والأنبار بُنِيا جميعاً في زمن بُختَ نَصَّر، وأقامت الأنبار عامرةً خمس مئة سنة، ولما خَرِبت الحيرة تحوَّلَ أهلها إلى الأنبار.

وأولُ ملوك الحيرة من العرب: مالك بن فَهْم بن غانم بن دَوْس بن الأزد بن غوث ابن نَبْت بن مالك.

وكان بُختَ نصَّر قد أخْرَبَ الحيرة وطرد عنها العرب زماناً، فلما ضَعُف أمرُ الفُرس، قصدها مالك لَمَّا خرج من اليمن مع ولد جَفْنة حين أحسُّوا بسَيْل العَرِم، فملك

(١) ديوانه ص ٢٦، والعقد الفريد ٥/ ٣٥٥.

(٢) ما يجوز للشاعر ص ٣٤٨، وضرائر الشعر ١٨٥ والمصادر فيهما.

(٣) تأويل مشكل القرآن ٢٣٨، وضرورة الشعر للسيرافي ص ٨٩، وضرائر الشعر ١٨٦ والمصادر فيها.

(٤) هو أبو النجم العجلي، والأبيات في ديوانه ١٤١.

مالك على مُضَر ونزل الحيرة، فأقام مدةً، ثم مات.

فصل

فملك بعده ولدُه جَذيمةُ، ويُلقَّب بالأبرش، والوضَّاح لوَضَحٍ كان به، وكان من أفضل ملوك العرب رأياً، وأشدهم نكاية[1]، وهو أول مَن اجتمع له مُلك العراق، وحكم على العرب، وكانت منازلُه من الحيرة إلى الأنبار وهِيت وعَيْنِ التّمرِ.

وكان لا يُنادم إلا الفَرقَدَيْن ترقُّعاً، وكان إذا شرب قَدَحاً صبَّ لهما قَدَحَيْن، وكانت تُجبى إليه الأموالُ، وتَفِدُ عليه الوفودُ، وفي أيامه كانت زَرْقاء اليمامة.

فصل في ذكرها

كان قد خرج جَذيمة يغزو طَسْماً وجَدِيْساً، فوجد حسَّان بن تُبَّع الحِمْيَري قد سبقه إلى غزوهم، فعاد جَذيمة إلى منازله.

وسبب غزو حسانَ لهم: أنه كان لهم ملك يقال له: عملوق، وكان جباراً فاتكاً فاسقاً، وكان من طَسْم وهو حاكم على جَديس، ظالماً لها بحيث أنه لا يُزَفُّ من جَديس امرأةٌ إلى زوجها إلا وتُحمَلُ إليه، فيَفتَرِعَها عملوق قبل زوجها.

فتزوَّجت امرأة شريفة في جديس يُقال لها: الشَّموس بنت عَفار أخت الأسود بن عَفار الجَدِيسي، فلما كانت ليلة زفافها ذهبوا بها إلى عملوق، فافتَرعها وخلَّى سبيلها، فخرجت على قومها في دمائها، وقد شقَّتْ جيبَها، وكشفتْ عورتها، وقالت تُحرِّضُ جَديساً على طَسْم: [من الطويل]

أيَصلُح ما يُؤتى إلى فَتياتِكم ... وأنتم رجالٌ فيكمُ عددُ النَّملِ
أيَحسُن تمشي في الدِّما فَتياتُكم ... صبيحةَ زُفَّت في النساء إلى البَعْلِ[2]
فإن أنتُم لم تَغضَبوا عند هذه ... فكونوا نساءً لا تَريموا[3] من الكحلِ

---

(١) في النسخ: مكانة، والمثبت من المنتظم ٢/ ٥٠.

(٢) في مروج الذهب ٣/ ٢٧٩: أيحسن تمشي في الدماء فتاتكم، وفي معجم البلدان (يمامة) ٥/ ٤٤٣: أيجمل تمشي في الدماء فتاتكم... في العشاء إلى بعل.

(٣) في أسماء المغتالين لابن حبيب (نوادر المخطوطات) ٢/ ١١٩، ومعجم البلدان، والخزانة: لا تَغِبّ، وفي الأغاني ١١/ ١٦٦، وتاريخ ابن الأثير ١/ ٣٥٣: لا تُعاب، وفي مروج الذهب ٣/ ٢٧٩: تغيضوا.

ودونكم طيبُ النساء فإنما جُعِلْتُم لأَثواب العروسِ وللغُسلِ
فلو أننا كنا الرجالَ وأنتمُ نساءٌ لكُنَّا لا نُقِرُّ على الذلِّ
فموتوا كراماً واصبِروا لعدوِّكُم بحربٍ تَلظَّى بالضِّرامِ من الجَزْلِ[1]
فيَهلِك فيها كلُّ خَبٍّ مُخادعٍ ويَسلم فيها ذو النَّجابَةِ والفَضْلِ

فلما سمعت جَديس ذلك غضبت، فقال لهم أخوها الأسود وكان فيهم مُطاعاً: يا جَديس، أطيعوني. قالوا: وما ذاك؟ قال: قد عَلمتُم أن طَسْماً ليسوا بأعزَّ منكم، وإنما تمليكُ عملوق علينا، وميلُه إليهم، هو الذي فعل بنا ما فعل، وإني صانعٌ لهم طعاماً، وأَدعوا عملوقاً وطسماً إليه، فإذا جاؤوا قَتلتُ أنا عملوقاً، واقتلوا أنتم رؤساءهم. وصنع طعاماً، وأَحضرهم، وقتل عملوقاً، وقتلوا رؤساءهم حتى أفنَوْهم، ولم يُفْلِت من رؤسائهم إلا رياح بن مُرّة، فهرب إلى حسان بن تُبَّع فأخبره، وقال: قد انْتُهِكَ من طَسْم ما لم يُنْتَهَك[2] من أحد. فسار حسان إليهم بقبائل حِمْير وهم باليمامة، فلما بقي بينه وبينها ثلاثة أيام قال رياحٌ لحسان: أيها الملك، أخشى من امرأة في جديس ليس في الدنيا أبصرُ منها، إنَّها لتُبصرُ الرّاكب من مسيرة ثلاثة أيام، وأخافُ أن تُنذِرَ القَوْمَ، فلو أمرتَ أصحابك أن يحمل كلُّ واحد منهم شجرة ويجعلها أَمامه، فأمرهم حسان بذلك.

ونظرت زرقاءُ اليمامة إلى القوم من مسيرة ثلاثة أيام، فأنذرت قومها، وقالت: يا جديسُ، لقد سار إليكم الشجرُ من ورائها الرجال، وأرى فيهم رجلاً يَخصِفُ نعلاً، وآخر يَنْهَشُ كَتِفاً، فكذَّبوها، فقالت: [من البسيط]

إني أَرى شجراً من خَلْفِه بشَرٌ فكيف تجتمعُ الأشجارُ والبشرُ
ثوروا بأجمَعِكم في صَدْر أوّلِهِ فإن ذلك منكم فاعلَموا ظَفَرُ

ثم قالت:

أُقسم بالله لقد دَبَّ الشَّجر أو حِمْير قد أخذت شيئاً يُجَرّ

(١) في (ب) و(خ): بالكرام من الذل؟! والمثبت من مروج الذهب ٣/ ٢٨٠.
(٢) في (ب): انهتك... تنتهكه، وفي (خ) و(ك): وقال: هل من طسم ما لم ينتهله، والمثبت من مروج الذهب ٣/ ٢٨٤.

فصبَّحهم حسان فاجتاحهم، وأخذ زرقاء اليمامة، فشَقَّ عينيها، فإذا عروقٌ سود، فسألها عن ذلك، فقالت: إني لأكتحلُ بالإِثْمِد في كل ليلة فيَشِبُّ بصري، وهي أولُ من اكتحلت به فاتّخذته الناس بعد ذلك. ثم أمر بها حسانُ فصُلِبت على باب اليمامة.

وزرقاء اليمامة لقبٌ لها، واسمُها يمامة بنت مُرَّة أخت رياح الذي أتى بحسان. ويقال: هي من بنات عاد، وبها يُضَربُ المثلُ في حِدَّة البصر.

واختلفوا في أيام جَذيمة، فقيل: ستين سنةً، وقيل: ملك مئةً وثمانية عشرة سنة، وأقام ملكاً في زمان ملوك الطوائف خَمْساً وتسعين سنة، وفي أيام أَرْدشير بن بابَك ثلاثاً وعشرين سنة. وقصصُه مع أخته رَقَاش، وتزويجها بعَديّ بن نصر، وحديث عمرو بن عدي، واستطارة الجن له وعَوْده إليه، وطلبه لزواج الزَّبَّاء، وقتلها له، وتحيُّل قصير وعمرو بن عدي على قتلها مشهور، لا حاجةَ إلى الإطالة بذكره.

فصل

وملك عمرو بن عَديّ بعد خاله، فأقام نيّفاً وستين سنة، وقيل: مئةً وستين سنة، ثم مات.

فصل

ثم ملك بعده ولدُه امرؤ القيس بن عمرو، فأقام ستين سنة، ثم مات.

فصل

ثم ملك بعده ولده عمرو بن امرىء القيس، وأمُّه مارية من ولد ملوك غسان، وهو من لَخْم ويُسمّى مُحرِّقاً؛ لأنه أول من حرَّق بالنار، وفيه يقول الأسود بن يَعفُر: [من الكامل]

مـــاذا أؤمِّـــلُ بـــعـــد آلِ مُـــحـــرِّقٍ[1]

الأبيات.

فأقام خمساً وعشرين سنةً، ثم مات.

فصل

وولي بعده النعمانُ بن امرىء القيس، وأمُّه الهَيْجُمانَةُ، وقيل: هي التي يُقال لها:

(١) تمامه: تركوا منازلهم وبعد إيادِ، وهو في «المفضليات» ص ٢١٧ وتخريجه فيه.

ماء السماء، لجمالها.

وهو الذي بنى الخَوَرْنَق والسَّدير، وهو النعمان الأكبر، وكان أعورَ، وهو الذي مَلّكه أنوشروان بن قُباذ، وهو الذي أشرف يوماً على الخورنق والسدير، فنظر إلى ما حولَهما، فقال: أكلّ ما أَرى يَصيرُ إلى فناء؟ قالوا: نعم. فقال: أريد عيشاً لا يزول. فقالوا: تَخلعُ أسباب الملك، وتَلبَسُ الأَمساح، وتَسيح في الأرض، ففعل. وأقام في الملك خمساً وستين سنة.

وروى الأصمعي: أن النعمانَ بن امرىء القيس الأكبر ـ وهو الذي بنى الخورنق والسدير ـ ركب يوماً، فأشرف على الخَوَرْنَق، فنظر إلى ما حولَه، فقال لمن حضره: هل علمتُم أن أحداً أُوتيَ مثلَ ما أوتيتُ؟ قالوا: لا، إلا رجلاً منهم ساكتٌ لا يتكلّم، وكان من حُكمائهم، فقال له: مالَكَ لا تتكلَّم؟! فقال: أيها الملكُ، إن أَذنتَ لي تكلَّمتُ. قال: قُل. قال: أرأيتَ ما جمعتَ، أشيءٌ هو لك لم يَزُلْ ولا يزولُ، أم هو شيءٌ كان لمن قبلك، وزال عنه وصار إليك، وكذلك يزولُ عنك؟ فقال: لا، بل كان لمن قبلي فزال عنه، وصار إليَّ، وكذا يزولُ عني. قال: فسُررتَ بشيءٍ تزول عنك لذَّتُه غداً، وتبقى تَبِعَتُه عليك، تكون فيه قليلاً، وتُرتَهنَ فيه كثيراً طويلاً؟!

قال: فبكى النعمانُ، وقال: أين المهربُ؟ قال: إلى أحد أمرين: إما أن تُقيمَ، فتعملَ بطاعة ربِّك، وإما أن تُلقيَ عليك أمساحاً، ثم تلحقَ بجبلٍ، وتفرَّ من الناس، وتُقيمَ وحدَك تعبدُ ربَّك حتى يأتيَك أجلُك. قال: فإذا فعلتُ ذلك فما لي؟ قال: حياةٌ لا تموت، وشبابٌ لا يهرم، وصحة لا تسقم، ومُلْك جديد. قال: والله لأطلُبنَّ عيشاً لا يزولُ أبداً.

قال: فانخلع من مُلكه، ولبس الأمساحَ، وساحَ في الأرض، وتَبعَه الحكيم، فعبدا الله جميعاً حتى ماتا.

وهو الذي يقول فيه عديُّ بن زيد العِبَادِي: [من الخفيف]

أيُّها الشَّامتُ المُعَيِّرُ بالدَّهْـ ... ـرِ أأنتَ المخلَّدُ الموفورُ
أم لديكَ العهدُ الوَثيقُ من الأيّام بل أنتَ جاهلٌ مغرورُ
مَن رأيت المنونَ أخْلَدْنَ أمْ مَنْ ... ذا عليه من أن يُضامَ خَفيرُ

أينَ كِسْرى كسرى الملوكِ أبو سَا سَانَ أَمْ أينَ قَبلَه سابُورُ
وبنو الأَصْفَرِ الكِرامُ مُلوكُ الرُّوم لم يَبْقَ منهمُ مَذْكُورُ
وأخو الحَضْرِ إذْ بناهُ وإذ دِجْـ ـلَةُ تُجبَى إليه والخابورُ
شادَهُ مَرمَراً وجلَّلَه كِلـ ـساً فللطَّيرِ في ذُراهُ وُكُورُ
لم يَهَبْهُ رَيبُ المَنُوْنِ فزال الـ ـمُلكُ عنه فبابُه مَهجورُ
وتَذكَّرْ رَبَّ الخَوَرْنَقِ إذْ أشْـ ـرف يوماً وللهُدَى تفكيرُ
سرَّه مالُه وكَثرةُ ما يَمْـ ـلكُ والبحرُ مُعرِضٌ والسَّديرُ
فارْعَوى قلبُه وقال: وما غِبْـ ـطةُ حيٍّ إلى الممات يَصيرُ
ثم أضحَوْا كأنهم وَرَقٌ جَفّ فأَلْوتْ به الصَّبا والدَّبورُ
ثم بعد الفَلاح والمُلكِ والإمَّـ ـةِ وارَتهمُ هناك القبورُ
يا ديارَ الأحبابِ غيَّركِ الدَّهْـ ـرُ وكانتْ بعدَ الأمورِ أمورُ[1]

وفيهم يقول الأسود بن يَعفُر: [من الكامل]

ماذا أُؤمِّلُ بعد آلِ مُحرِّقٍ تركُوا منازِلَهم وبعدَ إيادِ
أرْضِ الخَوَرْنَقِ والسَّدير وبارقٍ والقصرِ ذي الشُّرُفاتِ من سِنْدادِ
نزلوا بأَنْقِرَةٍ يسيلُ عليهم ماءُ الفُراتِ يَجِيءُ من أَطْوادِ
أرضٌ تخيَّرها لطِيبِ مَقيلها كعبُ بن مامَةَ وابنُ أمِّ دُؤاد
جَرَتِ الرِّياحُ على مَحلِّ ديارِهم فكأنما كانوا على مِيعادِ
فأرى النَّعيمَ وكلَّ ما يُلْهى به يوماً يَصيرُ إلى بِلىً ونَفادِ[2]

قال ابن الكلبي: ملك بعده ولدُه المنذرُ بن النعمان، وأمه الفراسية من آل نصر بن ربيعة اللخمي، فأقام في الملك خمساً وعشرين سنة، ويقالُ لأمه: ماء السماء. وكان يقال له: ذو القرنين، لضفيرتين كانتا له في جانبي رأسه يُرسِلُهما.

وقال المدائني: إنما ملك بعد النعمان الحارثُ بنُ عمروٍ جدُّ امرىء القيس الشاعر، والأول أشهر.

(١) التوابين ص ٦٧ـ٦٨، وانظر الأغاني ٢/ ١٣٧، والمنتظم ٧/ ٢١٥ـ٢١٧.
(٢) المفضليات ص٢١٧، والشعر والشعراء ١/ ٢٥٥ـ٢٥٦، والأغاني ١٣/ ١٦ـ١٩، وانظر التوابين ص ٦٩.

فصل

ثم ولي بعد المنذر بن النعمان ولدُه عمرو، ويقال له: الأسود. وأمُّه هند بنت الهيجمانة. أقام عشرين سنةً وسُمّي مضرِّطَ الحجارة لشدّة صرامته، وسُمّي محرِّقاً لأنه أحرق من بني تميم تسعة وتسعين رجلاً، وكمَّلهم مئةً برجلٍ من البَراجم، وكان بنو تميم قتلوا أخاه سعد بن هند.

ومحرِّق أيضاً لقبُ الحارثِ بن عمرو، ملك الشام من آل جَفْنةَ، سُمّي بذلك لأنه أولُ من حرَّق العرب في ديارهم.

وعمرو بن هند صاحبُ طَرَفة والمتلمّس، وكان كتب لهما كتابين إلى عامله بالبحرين، أَوْهَمهما أن في الكتابين صِلةً، وفي الكتابين يأمره بقتلهما ويقول: إذا أتاك طرفةُ والمتلمِّسُ فاقطع من كل واحدٍ منهما أكحلَه، ودَعْه حتى يموت.

فأما المتلمسُ فإنه مرَّ على رجل يَفلي ثيابه ويأكل خبزاً، فقال: ما رأيتُ أحمقَ من هذا. فرفع الرجل رأسه وقال: أما أنا فأرمي خبيثاً وآكلُ طيِّباً، وأحمق مني من حمل حتفه بيده. ففتح الصحيفةَ فرأى ما فيها من الشرِّ فرمى بها في النهر. وأما طرفةُ فمضى بالكتاب إلى العامل فقرأه فقطع أكحله، وتركه حتى مات.

وكان مُلْكُ عمرو بن هندٍ أربعاً وعشرين سنة.

والمتلمّس اسمُه: جرير بن عبد المسيح الضُّبَعي، عَشِق أخت عمرو بن هند وشبَّب بها، فطلبه عمرو ليقتله فهرب، وهو من المقِلِّين من الشعر، وهو خالُ طرَفة بن العبد، وإنما سُمِّي المتلمّس لقوله: [من الطويل]

فهذا أوانُ العِرض جُنَّ ذُبابُه ... زَنابيرُه والأزرقُ المتلمِّسُ

وأولُ الأبيات:

ألم تَر أن المرءَ رَهْنُ منيَّةٍ ... صريعاً لعافي الطيرِ أو سوف يُرْمَسُ

فلا تَقْبَلَنْ ضيماً مخافةَ مِيتةٍ ... وموتَنْ بها حُرّاً وجِلدُك أملَسُ

فمِن طَلَبِ الأوتارِ ما حَزَّ أنفَه ... قصيرٌ وخاضَ الموتَ بالسّيف بَيْهَسُ

بيهس كان خرج في سفر ومعه سبعةُ إخوة فقُتلوا، ورجع هو فاستَحْمَق، فرجع حتى أخذ بثأرِه، وكان يُقال له: نعامة.

نَعامةُ لما صَرَّعَ القومُ رهطَه تَبيَّنَ في أثوابه كيف يَلبَسُ

وقيل: كان يَلبَسُ ثوبه مقلوباً حتى أخذ بثأره.

وما الناسُ إلا ما رأَوْا وتحدّثوا وما العَجْزُ إلا أن يُضامُوا فيَجلِسوا
ألم تَر أن الجَوْن أصبح راسياً تُطيفُ به الأيام ما يتأيَّسُ
عصى تُبَّعاً أيام أُهلكت القُرى يُطانُ عليه بالصَّفيح ويُكلَسُ
هلمّ إليها قد أُثيرتْ زروعُها وعادت عليها المنْجَنون تكدَّسُ
فهذا أوانُ العِرضِ جُنَّ ذُبابُه زنابيرُه والأزرقُ المتلمِّسُ
يكون نذيرٌ من ورائي جُنَّةً ويَنصرني منهم جُلَيٌّ وأَحْمسُ
وجَمْع بني قُرّان فاعرض عليهم فإن يَقبلوا هاتا التي نحن نُوبَسُ
فإن يُقبِلوا بالوُدِّ نُقبِلْ بمثله وإلا [فإنّا] نحن آبى وأشمسُ
وإن يك عنّا في حبيبٍ تَثاقُلٌ فقد كان فينا مِقْنَبٌ ما يُعَرِّسُ[1]

وقال الخطابي: إن النبي ﷺ كتب كتاباً لعُيَيْنَة بن حِصن، وخَتمه وناوله إياه، فقال: يا محمد، أراني حاملاً إلى قومي صحيفة المتلمّس[2]. أي: لا أحمل كتاباً لا أدري ما فيه.

ومن شعر المتلمّس: [من الوافر]

وأَعلمُ عِلْمَ حقٍّ غيرَ ظنٍّ لَتقوى الله من خير العَتادِ
لَحِفْظُ المال أيسرُ مِن بُغاه وضربٍ في البلاد بغير زادِ
وإصلاحُ القليل يزيدُ فيه ولا يبقى الكثيرُ مع الفسادِ[3]

فصل

ثم ملك بعده أخوه قابوس بن المنذر، فأقام والياً ثلاثين سنة، وقيل: أربع سنين، وأمُّه هند أيضاً.

---

(١) ديوانه ١١٠ـ١٢٩، وما بين معكوفين منه.

(٢) معالم السنن ٢/ ٥٨، وهو من حديث سهل بن الحنظلية رضي الله عنه، وهو في سنن أبي داود (١٦٢٩)، ومسند أحمد (١٧٦٢٥).

(٣) من قوله: والمتلمس اسمه جرير... إلى هنا زيادة من (ب)، والأبيات في ديوانه ١٧٢ـ١٧٣، وانظر الشعر والشعراء ١/ ١٧٩.

فصل

ثم ملك بعده النعمان بن المنذر بن امرىء القيس، وهو الذي يقال له: أَبَيْتَ اللَّعْنَ، ومعناه: أَبَيْتَ أن تأتي ما تُلْعَنُ عليه. وكانت تحية الجاهلية فنسخها الإسلام. وأمه: سلمى بنت وائل، كَلْبية، وأمّها الشُّقيقة بالضم. وهو صاحب النابغة الذّبياني مدحه وهجاه، قال يهجوه: [من الخفيف]

خَبّروني بني الشُّقيقةِ ما يَمْـ ـنَعُ فَقْعاً بقَرْقَرٍ أن يَزولا[1]

والشُّقيقةُ بنت عَبّاد بن زيد بن عمرو بن ذُهْل بن شيبان، ، وهي أُمُّ سيَّارٍ وسمير وعبد الله وعمرو بن أسعد بن همَّام بن مُرّة بن ذُهل بن شيبان، وكانوا سيَّارةً مرَدَةً لا يأتون على شيءٍ إلا أفسدوه.

وكنية النعمان أبو قابوس، قال النابغة: [من البسيط]

نُبِّئْتُ أن أبا قابوسَ أوعدني ولا قَرارَ على زَأْرٍ من الأَسَدِ[2]

ومن مديح النابغة ـ واسمه زياد بنُ معاوية أبو أُمامة ـ في النعمان قصيدته المشهورة[3]: [من البسيط]

يا دارَ ميّةَ بالعلياء فالسَّنَدِ أَقْوَتْ وطال عليها سالفُ الأَبَدِ
وقفتُ فيها أُصَيْلالاً أُسائلُها عَيَّتْ جواباً وما بالرَّبْع من أَحَدِ
إلّا أوارِيَّ لأْيَاً ما أُبَيِّنُها والنُّؤْيُ كالحَوْضِ بالمظلومَةِ الجَلَدِ
أضحتْ قِفاراً وأضحى أهلُها احتَملوا أَخنى عليها الذي أخنى على لُبَدِ
ولا أرى فاعلاً في الناسِ يُشْبِهُه ولا أُحاشي من الأقوامِ من أَحَدِ
واحكُم كحكم فتاةِ الحيِّ إذ نظرت إلى حَمامِ سِراعٍ واردِ الثَّمَدِ

وهذه القصيدةُ قالها معتذراً إلى النعمان لمّا بلغه أنه تعرّض لزوجته المتجرِّدة.

والنابغةُ من الطبقة الأُولى من المتقدِّمين على سائر الشعراء، وهو أحد شعراء الجاهلية المشهورين، وأحدُ الأشراف الذين غَضَّ منهم الشعر.

---

(١) ديوانه ص ٩٩، والفقع: ضرب من الكمأة، والقرقر: الأرض المطمئنة الرخوة اللينة.

(٢) ديوانه ص ٣٦.

(٣) هي المعلقة، وهي في ديوانه ص ٣٠ فما بعدها، وسلف أن كنيته أبو ثمامة، وقد كني بابنتيه أمامة وثمامة، انظر الشعر والشعراء ١٥٧.

وكان خصيصاً بالنعمان ومن ندمائه، فرأى زوجةَ النعمان المتَجرِّدةَ، وقد سقط نَصيفُها ودِرعُها فسترت وجهها بيدها.

وكان النعمان أَبرشَ قبيحَ المنظر، وكان من نُدمائه المنخَّلُ اليَشْكُري الشاعر، وكان من أجمل العرب، وكان يُرمى بالمتجرِّدة، ويتحدَّث للعرب أن ابْنَي النعمان كانا منه، فلما رآها النابغةُ قال: [من الكامل]

سَقط النَّصيفُ ولم تُرِدْ إسقاطَه فتَناوَلَتْه واتَّقَتْنا باليدِ(١)

وأوَّلُها:

من آلِ ميّةَ رائحٌ أو مغتدِي عَجْلانَ ذا زادٍ وغيرَ مزوَّدِ(٢)
لو أنها عَرضَتْ لأشمَطَ راهبٍ يخشى الإلهَ صَرورةٍ مُتَعَبِّدِ
لصَبا لبَهْجَتِها وحُسْنِ حديثها ولَخالَه رُشْداً وإن لم يَرشُدِ

ووصف بطنَ المتجردة وظهرها وغيرَ ذلك، فغار المنخَّل، وقال للنعمان: ما يَقْدِرُ أن يقولَ هذا الشعر إلا من جرَّب. فغضب النعمان وتنكَّر له، وعزم على قتله. فهرب النابغةُ إلى الشام، فالتجأ إلى عمرو بن الحارث الأصغر بن الحارث الأعرج بن الحارث الأكبر بن أبي شَمِرٍ الغَسّاني، وأُمّه ماريَة بنت ظالم الكِنْديّة ذات القُرطَين، وأُختها هند الهنود امرأة حُجْرٍ آكل المُرار، فمدحه النابغة وقال: [من الطويل]

كليني لهمٍّ يا أُميمةَ ناصِبِ وليلٍ أُقاسيه بَطيءِ الكواكبِ

ومنها:

ولاعيبَ فيهم غيرَ أن سيوفَهم بهنَّ فُلولٌ من قِراع الكتائبِ
تَقُدُّ السَّلوقيَّ المضاعَفَ نَسْجُه وتُوقِدُ بالصُّفَّاحِ نارَ الحُباحِبِ(٣)

ومدح النعمانَ بن الحارث الأصغر الغساني أخا عمروٍ الذي التجأ إليه، فقال وقد رآه يمشي وهو غلام: [من السريع]

هذا غلامٌ حَسَنٌ وَجْهُه مُقتَبلُ الخيرِ سريعُ التَّمامْ

(١) ديوانه ص ٤٠.
(٢) ديوانه ص ٣٨.
(٣) ديوانه ص ٩، ١١، وانظر الشعر والشعراء ١/ ١٦٦-١٦٧، والأغاني ١١/ ١٤ - ١٦.

لـلـحـارثِ الأكـبـر والـحـارث الـ أصـغـر والأعـرجِ خـيـرِ الأنـامْ
ثـم لـهِـنـدٍ ولـهِـنـدٍ فـقـد أسـرع فـي الـخـيـرات مـنـه إمـامْ
خـمـسـةُ آبـاءٍ هـمُ مـا هـمُ هُمْ خيرُ مَن يشربُ صَوبَ الغمامْ(١)

ولم يزل النابغة مقيماً عند عمرو بن الحارث الغساني حتى مات عمرو، وولي أخوه النعمان بن الحارث، فاستعطفه النعمان بن المنذر، فعاد إليه.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوماً: مَن القائل: [من الطويل]

حلفتُ فلم أترُكْ لنفسِكَ رِيبةً وليس وراءَ الله للمرء مَذْهَبُ
ولستَ بمُسْتَبْقٍ أخاً لا تَلُمُّه على شَعَثٍ أيُّ الرجالِ المُهذَّبُ(٢)

قالوا: النابغة. فقال: فمن الذي يقول: [من البسيط]

إلا سليمانَ إذْ قال المليكُ له قُمْ في البَرِيَّة فازْجُرها عن الفَنَدِ(٣)

قالوا: النابغة. قال: فمن القائل: [من الوافر]

فلستُ بذاخرٍ لغدٍ طعاماً حِذارَ غدٍ لكلِّ غدٍ طعام(٤)

قالوا: النابغة. فقال: هو أشعر شعرائكم وأعلمُ الناس(٥).

استأذن النابغة يوماً على النعمان، فقال الحاجب: هو على شرابه. قال: فإنه وقت الملَق، فإن تَبلّج فَلَقُ المَجْدِ عن غُرَر مواهبه، فأنت قسيمُ ما أَفدتُ. فقال الحاجب: كيف أرغبُ فيما قصدتَ ووصفتَ، ودون ذلك رَهبةُ التعدِّي؟ وكيف السبيل؟ قال: فمن عنده؟ قال: خالدُ بن جعفر الكلابيُّ نديمُه. قال: فهل لك أن تُؤدّي إلى خالدٍ ما أقول؟ قال: قُل. قال: قل له: يقول لك النابغةُ: عظيمُ قَدْرك يفي بمأمول الدَّرك منك، وأنا من الشّكر مَنْ قد علمت، فدخل الحاجب، فقام خالد يقضي حاجتَه، فبلّغه الحاجب ما قال النابغة. فلما عاد خالد إلى المجلس، قال للنّعمان:

(١) ديوانه ص ١١٧، والأغاني ١١/ ١٩ـ٢٠.
(٢) ديوانه ص ١٧.
(٣) ديوانه ص ٣٣.
(٤) ديوانه ص ١١٦.
(٥) انظر الأغاني ١١/ ٤ـ٥، و«طبقات فحول الشعراء» ص ٥٦، والعقد الفريد ٥/ ٢٧٠.

[إلا لـمِـثـلـك أو مَـنْ أنـت سـابِـقُـه سَبْقَ الجواد إذا استولى على الأَمَدِ]

أَبَيْتَ اللَّعنَ، إن أملاكَ ذي رُعين ـ يعني ملوك اليمن ـ قد مدَّت لهم قَصَبات المجد[1] إلى معالم الأحساب، ومناقب الأنساب، في حلبةٍ أنت غُرَّتُها، فجئتَ سابقاً لها. فقال له النعمان: لأنت أبلغُ في وصفهم من النّابغة في نظم قافيته. فقال خالد: ما أَبلغَ فيك مدحاً إلا وهو دون قدرك، ولو كان النابغة حاضراً لقال وقلنا. فقال: عليَّ بالنابغة. فخرج الحاجب، فقال: فُتِح البابُ، ورُفِع الحجابُ، ادخل، فدخل وأنشد: [من البسيط]

أخلاقُ مجدِك جَلّتْ ما لها خَطَرٌ في البَأْسِ والجُود بين العِلمِ والخَبرِ
مُتَوَّجٌ بالمعالي فوق مَفْرِقه وفي الوغى ضَيْغَمٌ في صورةِ القمرِ[2]

فملأ فاه دُرّاً، فقاسمه الحاجبُ.

وكان يُضربُ للنَّابغة قُبَّةٌ من أَدَم بسوق عكاظ، فتأتيه الشعراءُ، فتعرِضُ عليه أشعارَها، فأنشده الأعشى، ثم حسَّان بن ثابت، ثم الخنساء، فمما أنشدَتْه أبياتها التي تقول فيها: [من البسيط]

وإنَّ صَخْراً لَتَأْتَمُّ الهُدَاةُ به كأنَّه عَلَمٌ في رأسِه نارُ[3]

فقال النابغة: واللهِ لولا أنَّ أبا بصير أنشدَني آنِفاً، لقُلتُ إنكِ أشعرُ أهلِ زمانِك من الإنس والجِنِّ.

ومن شعر الخَنْساء في «الحماسة»: [من السريع]

دَلَّ على مَعْرُوفِه وجهُه بُورِك هذا هادياً من دليلْ
تَحسبُه غَضبانَ من عِزِّهِ ذلك منه خُلُقٌ ما يَحولْ
وَيْلُ امِّهِ مِسعَرَ حَرْبٍ إذا أُلقيَ فيها وعليه الشَّلِيلْ[4]

(١) في النسخ: قد مدت لهم قصب السبق، والمثبت من مروج الذهب ٣/ ٢٠٣ وما بين معكوفين منه، والبيت في ديوانه ص ٣٣.
(٢) ديوانه ص ٧٤، وانظر مروج الذهب ٣/ ٢٠٤.
(٣) ديوانها ص ٤٨.
(٤) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٤/ ١٧٩٨، وديوانها ص ١١٥.

فقام حسان بن ثابت، فقال: والله أنا أشعرُ منها ومنك ومن أبيك. فقال النابغة: حيث تقول ماذا؟ فقال: حيث أقول: [من الطويل]

لنا الجَفَناتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحى وأَسْيافُنا يَقْطُرْنَ من نَجْدَةٍ دَما
وَلَدْنا بَني العَنْقاءِ وابنَيْ مُحَرِّقٍ فأكرِمْ بنا خالاً وأكرِم بنا ابْنَما[1]

فقال له النابغة: يا بُنيَّ إنك قلت: الجفنات فقلَّلت عددك، ولو قلت: الجفان كان أولى، وقلت: يلمعن بالضُّحى، ولو قلتَ: في الدُّجَى، كان أبْلَغ، لأن الضِّيفانَ يكْثُرن في الليل، وقلتَ: يقْطُرن. ولو قلتَ: يجرين، لكان أكثر للدم، وفَخَرْتَ بمن ولدْته، ولم تَفْخَر بمن ولَدَك[2].

وكسرى أبرويز هو الذي قتل النُّعمان بن المنذر، وسببُ قتله أنه قتل عَدِيَّ بنَ زيدٍ ابن حِمار بن أيوب[3]، وكان يسكن الحيرة، وكان عديٌّ نصرانياً، وكان منزلُ جدِّه أيوب بن مَحروف باليمامة، في بني امرىء القيس بن زيد مَناة، فأصاب دماً باليمامة فهرب، فنزل الحيرة على أوس بن سلام[4] أحد بني الحارث بن كعب، وكان بين أوسٍ وأيوبَ نسبٌ من قِبَل النساء، فأنزله أوس وأكرمه، وأقام عنده مدة ثم ماتا.

ونشأ زيد أبو عَديّ، وتعلَّم الكتابة ووُلِد له عَديّ، فعلَّمه الكتابة، فخدم كسرى وأَنفق عليه، وكان يكتب له، وكان ذلك في زمان المنذر، فجعل المنذرُ ابنَه النعمان في حِجْر عَديّ بنِ زيد، وتزوّج عَديٌّ هنداً بنت النعمان، ومات المنذر، فأشار عَديّ على كسرى بتولية النعمان دون إخوته، وكان أصغرهم، فغضب الأسودُ بنُ المنذر أخو النعمان وأهلُه على عَديّ، واحتالوا وتَوصَّلُوا إلى النعمان، ووشَوْا بينهما، وقالوا: إن عديّاً يقول: إنما النعمان عاملٌ من قِبَله. فحبسه، وأطال حبسه، فكتب إليه عدي من الحبس يقول: [من الرمل]

أَبلِغِ النُّعْمانَ عني مَألَكاً أنّه قد طال حَبسي وانتظاري

(١) ديوانه ص ٢٢١.
(٢) انظر الأغاني ٦/١١، وخزانة الأدب ٨/ ١١٢ـ١١٣.
(٣) في النسخ: حماد بن أثوب، والمثبت من طبقات فحول الشعراء ١/ ١٣٧، وانظر حاشيته لزاماً.
(٤) في الأغاني ٢/ ٩٨: قلّام.

لـو بـغـيـر الـمـاءِ حَـلْـقـي شَـرِقٌ كـنـتُ كـالـغَـصَّـانِ بـالـمـاءِ اعْـتِـصـارِي
وعُـداتـي شُـمَّـتٌ أَعـجـبَـهـم أنَّـنـي قـد غِـبْـتُ عـنـهـم فـي إسـاري
فـلَـئِـن دهـرٌ تَـولَّـى خـيـرُه وجـرت لـي مـنـه بـالـنـحـس جـوار
رُبَّـمـا مـنـه قَـضـيـنـا حـاجـةً وحـيـاةُ الـمـرءِ كـالـشَّـيءِ الـمُـعـارِ[1]

ومدحه بقصائد كثيرة فلم تغن عنه شيئاً.

وبلغ كسرى حبسُ النعمان لعَديّ، فبعث إليه يتوعَّدُه ويتهدَّده، ويأمرُه بإطلاقه. فأشار أعداءُ عديّ على النّعمان بقتله، فغمّوه في ليلة، فلمَّا وصل رسولُ كسرى إلى النعمان يطلبُ عديّاً، أمره أن يذهب إلى الحبس ويُخرجه، فجاء فوجده ميتاً، فقالوا: مات البارحة. فعاد الرسول إلى كسرى فأخبره، فتَغَيَّظ وقال: قتلني الله إن لم أقتلْه. وكان في قلبه منه من يوم طلب منه فَرسَه اليَحْموم لينجو عليه، فمنعه النعمان منه[2].

ثم إن النعمان ندم على قتل عدي، وأحضر ابنه زيداً،واعتذر إليه، وجهَّزه إلى كسرى، وكتب معه كتاباً: إن عدياً كان ممن أُعين به في المُلك، وقد انقضت مُدّتُه، ولم يُصَبْ به أحد أَشَدَّ من مصيبتي به، وقد بلغ له ابنٌ وليس بدونه، فإن رأى المَلك أن يجعله مكان أبيه فعل.

فلما حضر زيد عند كسرى أُعجب به، وسأله عن النعمان فأثنى عليه، وأقام زيدٌ يُعْمِلُ الحيلةَ في قتل النعمان، فما زال حتى قتله، لما نذكر.

وكان النعمان يعبد الأوثان، فلم يزلْ به عَديّ حتى نَصَّرَه؛ خرج يوماً معه إلى الصيد، فمرا بمقبرة، فقال له عَديّ: أيها الملكُ أتدري ما يقولُ أهلُها؟ قال: لا. قال: إنهم يقولون: [من الرمل]

رُبَّ رَكْـبٍ قـد أَنـاخـوا حـولَـنـا يَـشـربـون الـخَـمْـرَ بـالـمـاءِ الـزُّلالِ
ثـمّ عـادوا عَـصَـفَ الـدَّهـرُ بـهـم وكـذاك الـدَّهـرُ حـالاً بـعـد حـالِ

فقال له النّعمان: إنَّ هؤلاء لا ينطِقُون فما الذي أَردْتَ؟ قال: أردتُ وَعْظَك، وأن ترجعَ عن عبادةِ الأوثان إلى عبادةِ الرحمن، وتدينَ بدين المسيح. فتنصَّرَ النعمان[3].

(١) انظر العقد الفريد ٥/ ٢٦١، والأغاني ٢/ ١١٤.
(٢) سلفت القصة ص٤٤٠ من هذا الجزء.
(٣) انظر الأغاني ٢/ ٩٦، ١٣٤.

وعَديّ القائل: [من البسيط]

يـا أيُّـهـا الـرَّكـبُ سيـروا إن قَـصْـرَكُـمُ أن تُـصـبِـحـوا ذات يـومٍ لا تَـسـيـرونـا
حُـثُّـوا الـمَـطِـيَّ وأَرخـوا مـن أَزِمَّـتـهـا قـبـل الـمـمـاتِ وقَـضُّـوا مـا تُـقَـضُّـونـا[1]

وكان عَديٌّ يَهوى هنداً بنت النعمان، وكانت من أجمل النّساء، رآها في بِيْعةٍ في خميسِ الفِصْح، وذلك في أيّام المنذر، وكان قد قدِم عليه بهدية من عند كسرى. وكان لهندٍ أَمَةٌ يقال لها: مارِيَة، فعشِقتْ عديّاً، فأرادتْ أن تتقرَّب إليه بهند، فقالت له: هل لك أن تَقع عليَّ، وأتسبب لك في هند؟ فأَدْخلها حانوتَ خَمَّار، ووقع عليها، فأعملت الحيلة حتى جَمعتْ بينهما في البِيْعة، فعَشِقتْه هندُ وخطبها إلى النعمان فزوجه إياها، وكان جميلاً، وأقامت معه حتى قتله النُّعمان، فترهَّبتْ بدير هند ظاهر الحيرة، وأقامت به إلى صدر الإسلام، وماتت في ولاية المغيرة بن شُعبة على الكوفة من قِبَلِ معاوية، وخطبها المغيرة، فقالت: والله ما بي بقيَّةٌ من جَمال، ولكنَّك أردتَ أن تقول في المواسم: ملكتُ مملكةَ النّعمان، ونكحتُ ابنتَه. فقال المغيرة: صَدقْتِ.

ويقال: إن هنداً كانت تهوى زرقاءَ اليمامة، وهي أوّلُ امرأةٍ أَحبَّت امرأةً من العرب، فلما قُتِلتْ زرقاء اليمامة، ترهَّبتْ ولَبِستْ المُسوح، وبنَتَ بظاهرِ الكوفة دَيْراً وسَكنَتْه. وهذا بعيدٌ؛ أين هند من زرقاء اليمامة؟ الزرقاء كانت في زمن جَذيمة، والنعمانُ في آخر ملوك الحيرة.

ولما حَبس النّعمان عديّاً أكرهه على طلاقها، فطلقها[2].

ذكر مقتل النعمان

أقام زيد بن عدي عند كسرى يُعمِلُ الحِيْلةَ في قتل النعمان، والأخذ بثأرِ أبيه، وما كانت الفُرس تتعرَّض لنساء العرب، فوصف زيدٌ لأبرويز نساءَ آل المنذر، فكتب أبرويز إلى النُّعمان أن يبعث إليه بأخته أو ابنته ليتزوَّجَها، وبعث بالكتاب مع زيد بن عَدي. فلما قرأ الكتابَ قال: أما كان لأبرويز في مها السواد كفايةٌ حتى تَخطّى إلى كرائم

(١) تاريخ دمشق ٤٧/ ١٢٨ (طبع المجمع)، ونسبهما أبو الفرج في الأغاني ١٥/ ١٩ إلى مضاض بن عمرو.
(٢) انظر الأغاني ٢/ ١٢٨ـ١٣٣.

العرب؟ فقال له زيد: إنما أراد الملكُ إكرامَك ورفعَ منزلتك بمصاهرته إياك، ولو علم أنّ ذلك يَشُقُّ عليك لما فعل. فقال له النّعمان: قد علمتَ ما على العرب من العارِ والشَّناعَة بتزويج الأعاجم. فقال له: طِبْ نَفْساً سأصرفه عن ذلك.

فلمّا عاد زيد إلى أبرويز أعاد عليه ما قال النّعمان، وقال: إنه قال: فأين أبرويز عن بَقرِ السَّواد، وحرَّف عليه. وقال زيد: رُبَّ عبدٍ صار من الطغيان إلى أكثر من هذا[1].

فأرسل كسرى يطلبُ النُّعمان، فرحل بأمواله وأثقاله وأهله إلى البادية، فنزل على أصهاره من طيّىء فلم يَحمُوه، فانتقل إلى بني رَواحة فأجاروه. وضَجِر ومَلّ من التنقُّل في البادية، فأشارت عليه امرأتُه المُتَجرِّدة بأن يقصد باب كسرى مُستجيراً به.

وبلغ كسرى فصفّ ثمانية آلاف جارية، عليهن الحليُّ والحُلَلُ صَفَّين، فلما صار النّعمان بينهن قُلنَ جميعاً: أما فينا للملك غناء عن بقر السَّواد؟ فعلم النّعمان أنه غيرُ ناجٍ منه.

ولقيه زيد بن عَديّ فقال: أنت فعلت بي هذا، ولئن تخلَّصتُ لأسقِينَّك بكأس أبيك، فقال زيد: امض نُعَيْم، فقد أَخَّيتُ لك أَخِيَّة لا يَقطعُها المهرُ الأَرِنُ.

ثم أمر به كسرى فحُبس بساباطٍ بالمدائن، ثم ألقاه تحت أرجل الفيلة فداسَتْه حتى مات. وقيل: إنه حبسه بخانقين فوقع طاعون هناك فمات. والأول أصحُّ.

وقد أكثرت فيه الشعراء، قال زهير بن أبي سُلمى: [من الطويل]

ألم تر للنّعمانِ كان بنَجْوةٍ ... من الشرِّ[2] لو أن امرأً كان ناجيا
فلم أر مسلوباً له مثلُ مُلكه ... أقلَّ صديقاً باذلاً أو مُواسِيا[3]
خلا أن حيّاً من رواحةَ حافظوا ... وكانوا أُناساً يتقون المخازيا
فقال لهم خيراً وأثنى عليهمُ ... وودَّعهم توديعَ أنْ لا تلاقيا

(١) في المصادر أن القائل لذلك هو كسرى أبرويز، انظر تاريخ اليعقوبي ١/ ٢١٥، والطبري ٢/ ٢٠٥، ومروج الذهب ٢/ ٣٠٦، والأغاني ٢/ ١٢٥، وتجارب الأمم ١/ ١٣٣.

(٢) في النسخ: ألم تريا النعمان كان بنجوة من الأرض، والمثبت من العقد الفريد ٥/ ٢٦١، ومروج الذهب ٣/ ٢٠٧، وديوانه ص ١٧١ بشرح الشنتمري، وص ٢٨٨ بشرح ثعلب.

(٣) في النسخ: مساويا، والمثبت من المصادر.

ولما قصد النعمانُ بابَ كسرى مرَّ على بني شيبان فأودعهم أهلَه وعيالَه ودروعَه وسلاحَه وزوجته المتجردة ـ وكانت دروعُه عشرة آلاف شِكَّةً[١] ـ فلما قُتِل أَرسل كسرى يطلبها، وكان زعيمُ القوم هانىءُ بنُ قَبيصة بن هانىء بن مسعود، فامتنع هانىء من تسليمها إليه، وقال: قد استجار بي، فكيف أَخفِر ذِمامَه؟ فكان ذلك سبباً ليوم ذي قار.

فصل في ترجمة النعمان بن المنذر

كان شجاعاً فاتكاً، وكان له يومان: يوم بُؤسٍ، ويوم نَعيم. فمن لَقيه في يوم نعيمه وصله، ومَن لقيه في يوم بُؤسه قَتله. فلقيه عَبيد بن الأَبرص الشاعرُ في يوم بؤسه فقتله.

وقال الهيثم: لقي يومَ بؤسِه رجلاً فقال له: ما حملك على الخروج في هذا اليوم وقد علمتَ أنه يوم بؤسي؟ فقال: حملني العشقُ لابنة عمٍّ لي، تَواعدنا إلى مكان كذا، فخيَّرتُ نفسي بين أن أَراها وبين أن أُقتَلَ، فاخترتُ القتل. فقال: اقتلوه. فقال: أيها الملك، دَعْني أرى محبوبتي واقتُلني بعد ذلك. فقال: ومَن يَضمنُك أن تعود؟ فالتفتَ الرَّجل وجعل يُدير طَرْفَه في الناس، فاختار كاتبَ النعمان، فقال: هذا. فقال النعمان للكاتب: أَتضمنه؟ قال: نعم. قال: فإن لم يأت قتلتُك. قال: نعم. فمضى الرجل ثم عاد، فقال له النعمان: أيها الرجل، ما حملك على الرجوع وقد علمتَ أني قاتلُك؟ قال: خفتُ أن يذهب الوفاء. قال لكاتبه: ما حملك على ضمانه ولم تَعرفْه؟ قال: إنه تصفَّح الوجوه فاختارني، فخفتُ أن يَذهب الكرمُ. فقال: وأنا أخاف أن يذهب العفو، فعفا عنه ورفع يوم البؤس.

ذكر وِفادةِ النُّعمان على كسرى وتفضيله العرب على سائر الأُمم

وفَد النُّعمان على كسرى وعنده وفود الصِّين والهند والفرس والروم وغيرِهم، فذكروا[٢] ملوكَهم وبلادَهم، فافتخر النُّعمان على جميع الأمم بالعرب، ولم يَستثْنِ فارساً ولا غيرها، فغضب كسرى، وأخذته عِزَّة المُلك، وقال: يا نعمانُ، إني فكَّرت في أمر العرب ومن يَرِدُ عليَّ من الأُمم؛ فوجدت أهلَ الهند والصِّين لهم حظٌّ في اجتماع آرائها، وكثرة صنائعها، وبُعْدِ هِمَمِها وفُروسِيَّتها، وطِيْبِ بلادها واتساعها،

(١) الشَّكَّةُ: ما يُلبس من السلاح. اللسان (شك).

(٢) في النسخ: فذكر، والمثبت من العقد الفريد ٢/ ٤.

وكَثْرةِ أموالها وحِكَمِها، وكذا الرُّوم في نسبها[1] وعِظَمِ سلطانها، وكثرةِ مدائنها، وأن لها ديناً تتبيَّنُ فيه حلالَها من حرامها، وكذا التُّرك لهم النضارةُ والحُسْنُ والشجاعةُ، وكذا جميع الأمم، لكلِّ أمةٍ مَلِكٌ يُدبِّرها ويَجمع كلمتَها. وذكر كلاماً طويلاً ثم قال: ولم أرَ للعرب شيئاً من هذه الخِصال، لا في أمر دينٍ ولا دنيا ولا عقول، مع مهانتها وذُلِّها وصِغَر نفوسها، ومخالطتها الوحوشَ النافرة والحشراتِ القبيحة، يقْتُلون أولادهم من الفاقَةِ، ويأكلُ بعضهم بعضاً من الحاجة. قد خرجوا من مطاعم الدنيا وملابسها وشهواتها ولَذَّاتها، فأفضلُ طعامِهم لحومُ الإبل التي يعافُها كثير من السباع، لِثقَلها وسُوء طَعْمها. وإنْ قَرى أحدهم ضَيفاً عَدَّها مَكْرُمة، وإن أُطعِم طُعْمةً عدَّها غنيمة، تَنطِقُ بذلك أشعارُهم، ويفتخر به رجالُهم، ما عدا هذه التنوخية التي أسَّس جدّي اجتماعَها، وشَدَّ مملكتَها، وحماها من عَدوِّها، يعني اليمن.

فقال له النعمان: أيُّها الملك حقّ لأمَّةٍ أنت منها أن تسموَ بفَضلِها، ويَعْظُمَ خَطبُها، وتَعلو درجتُهَا، إلا أن عندي جواباً عن كل ما نَطق به الملك من غير ردٍّ عليه، فإن أَمِنتُ غضبه قلتُ. قال: قل، فأنت آمن. فقال: أصلح الله الملك، إنَّ أُمتَك ليست تُنازَعُ في الفضل لموضعها في عُقولها وأحلامها، وما أكرمها الله به من وِلايتها وأحكامها.

وأما العربُ فإنها تَفْضُل الأمم التي ذكرتَ بعزِّها ومَنَعتها، وبأسها وشجاعتها، وأنسابها، وسخائها، وفصاحتها ولغتها، ودينها، وحُسنِ ألوانها، وشِدَّة عقولها، وأنفتها، ووفائها.

فأمّا عزُّها ومَنَعتها؛ فإنها لم تَزل مجاورةً لآبائك الذين دوَّخوا البلاد، ووطَّدوا الممالك، وقادوا الجيوشَ، لم يطمع فيها طامعٌ، ولم يَنَلْهم نائل. حصونُهم ظهورُ خيلهم، وجُنَّتُهم رماحُهم وسيوفُهم، وغيرُهم من الأمم عِزُّهم الطينُ والحجارةُ وجزائر البحور.

وأمّا حُسْنُ ألوانِها؛ ففضلُها ظاهرٌ على الهنود المحترقةِ، والتُّركِ المشوّهةِ والروم المقشَّرة.

وأمّا أنسابُها؛ فليست أُمّةٌ من الأُمم إلا وقد جَهلت أنسابَها، حتى لو سُئِل واحدٌ

---

(١) في (خ) و(ك): نسبتها.

عما وراء أبيه لم يَنْسبه، ولم يعرفه، وما في العربِ إلا مَن يُسمّي آباءه أباً أباً، وجدّاً جدّاً، يَحفظون بذلك أحسابهم، فلا يدخل رجل في غير قومه، ولا يدعى إلى غير أبيه.

وأما سخاؤها؛ فإن الرجل يكون عنده البَكْرُ أو النابُ، عليها بُلْغَتُه من العيش، فيطرقه الطارقُ، فيعقِرُها له ويَرضى أن يَخرجَ من دنياه كلِّها بحُسْنِ الأُحدوثة، وجميل الذّكر.

وأما فصاحتُها؛ فإن الله أعطاها في نَظمها ونثرها ما لم يُعْطِه غيرَها من الأمم. ثم إن خيولهم أفضلُ الخيول، ونساءهم أعفُّ النساء.

وأما دينها؛ فإن لها بيتاً محجوجاً، وشهراً حراماً، وبلداً مُحرّماً يَنسكون فيه نسائكَهم، ويَذبحون ذبائحهم، ويَلقى الرجلُ قاتلَ أبيه، أو ابنه، أو أخيه، فلا يتعرَّض له في الشهر الحرام.

وأما وفاؤُها، فإنَّ أحدَهم إذا عَقد عُقدةً لا يَحُلُّها إلا خروج نَفْسه، وإن أحدهم ليرفعُ عوداً من الأرض؛ فيكون رَهْناً بدينه وذمَّته، فلا يَغْلَق رَهْنه ولا تُخفَر ذِمَّتُه. وإن أحدهم لَيَبْلُغُه أن شخصاً استجار به، وعسى أن يكون نائياً عن داره، فيُصابُ، فلا يرضى حتى يُفني تلك القبيلة التي أصابتْه، أو تَفنى قبيلتُه، لما أُخْفِر من ذِمامه وجِواره، وإنَّه لَيَلجأُ إليهم المُحْدِثُ المجرمُ من غير معرفةٍ ولا قرابة، فتكون نُفوسُهم دون نَفْسِه، وأموالُهم دون أمواله.

وأما قتلُهم الإناث من أولادهم؛ فليس للفاقَة، بل أنفةً من العار، وغَيْرةً من الأزواج.

وأما أكلُهم لحومَ الإبل؛ فما تركوا ما دونها إلا احتقاراً له، فجعلوها طعامَهم ومَراكبَهم، مع أنها أكثرُ البهائم شُحوماً، وألذُّها لُحوماً، وأرقُّها ألباناً، وأقلُّها غائلَةً. وذكر كلاماً طويلاً، فعجب كسرى من كلامه، وقال: إنَّك لموضع الرِّئاسة في أهل مملكتك، وفيما هو أفضل. ثم كساه من كِسوته وسَرَّحه إلى الحيرة.

فكتب النعمانُ إلى رؤساءِ العرب وحكمائها، مثل: أكثَم بن صَيْفيّ، وحاجِب بن زُرارة التَّميمي، والحارث بن عُبادٍ البَكريّ، وعَمرو بن مَعدي كَرِبٍ الزُّبَيديّ،

والحارث بن ظالمٍ، وقيس بن مسعودٍ البَكريِّ، وخالد بن جعفرٍ، وعَلْقمة بن عُلاثة العامِريِّ، وعَمرو بن الشَّريد السُّلَمي، فقدموا عليه، فأكرمهم وأخبرهم بما جرى له مع كسرى، وقال:

قد سمعتُ منه مقالةً أَتخوَّف أن يكون لها غَوْرٌ، [أو يكونَ إنما أظهرها لأمر]، وهو أن يَتّخذَ العرب خَوَلاً كبعض[1] طَماطِمته، كما يَفعل بملوك الأمم الذين حوله. وإنما أنا رجلٌ منكم، وما عَزَزتُ إلا بمكانكم، وبما يتخوَّفُ من ناحيتكم. وقد رأيتُ أن تَنطلقوا إليه بكتابي، وأن يَنطِقَ كلُّ واحدٍ منكم بما حضره، ليعلمَ أن العرب غير ما ظَنَّ، ولا تَنطِقوا بما يُغْضِبُه، فإنه ملكٌ عظيمُ الشَّأن، كثير الأعوان، ولا تَنخَزِلوا له انخِزالَ الخاضع الذَّليل، وليكن أمراً بين ذلك تَظهر به وَثاقَةُ حُلومِكم، ورَزانَةُ عقولكم. وليكن أوّل مَن يتكلم منكم أكثمُ بنُ صَيْفي، ثم تتابعوا على الولاء بقَدْر منازلكم التي وصفتكم[2] بها، فإنما دعاني إلى ذلك لئلا يَحرِصَ كلُّ واحدٍ منكم على التَّقدُّم قبل صاحبه، فيَجد في آدابكم مَطعناً، فإنه ملكٌ مُترَف، وقادرٌ مُسَلَّط.

ثم كساهم الحُلَل الثَّمينة، وحملهم على المَهاري والخيل العِتاق، وكتب معهم كتاباً فيه: أما بعد، أيها الملك، فإني قد أَنفَذتُ إليك وجوهَ العربِ وحكماءهم ورؤساءهم، ومَن لهم حَزمٌ وعَزْمٌ، وفصاحةٌ وصباحةٌ، وأحسابٌ وأنسابٌ. وقد كنتُ أجبتُ الملك عمّا رماهم به، وأَحببتُ أن يكونَ منهم على علمٍ ويقينٍ، فلْيَسمع الملك منهم، ويتغافل عن جَفاءٍ إن ظهر منهم، ويكرمني بإكرامهم، والسلام.

فلما وفدوا على كسرى أكرمهم، وجلس لهم مجلساً عامّاً، ولبس تاجه، وجمع علماء أهل مملكته، ونصب كراسيّ الذهب والفضَّة للوفود عن يمينه وشماله، ودعا بالأساورة والمَرازِبَة والمَوابِذة، وأجلس العربَ مجالسَهم التي وصفها النُّعمان في كتابه، وأقام التُّرجُمان ليؤدِّي إليه ما يقولون، وأذن لهم في الكلام.

فقام أكثم بن صَيْفي فقال: إن أفضل الأشياء أَعاليها، وأَعلى الرجالِ مُلوكها، وأفضلَ الملوك أعمُّها نفعاً، وخير الأزمنة أخصبُها، وأفضل الخطباء أصدقُها. الصدقُ

(١) في النسخ: لبعض، والمثبت من العقد الفريد ٢/ ٩ وما بين معكوفين منه.

(٢) في العقد ٢/ ١٠: وضعتكم.

مَنجاة، والكذبُ مَهواةٌ، والشرُّ لَجاجَةٌ، والخيرُ عادةٌ. وذكر ألفاظاً، فأُعجِبَ كسرى بكلامه وقال: لو لم يكن للعرب غيرُك لكفاها.

ثم قام حاجبُ بن زُرارة التميمي فقال: وَرى زَنْدك، وعَلتْ يدُك، وهِيْبَ سُلطانُك. نحن وُفود العرب إليك، ذِمَمُنا محفوظةٌ، وأنسابُنا مضبوطةٌ، وأحسابُنا ممنوعةٌ، وعشائرُنا فينا سامعةٌ مُطيعةٌ. وذكر ألفاظاً.

ثم قام الحارث بن عُبادٍ البَكري فقال: دامَتْ لك الممالكُ باستكمال جزيل حظِّها، وعُلوِّ شأنها، وارتفاع سلطانها أو سنانها. نحن جيرانُك اللائذون، ومُجاوِروك الأعلون، خيولُنا مُجمَّة وجيوشُنا جمّة، لا ننثني لذعر، ولا نتنكّر لدهر، رماحُنا طوال، وأعمارُنا قصار.

فقال كسرى: أَنفُسٌ عزيزة، وآلة ضعيفة. فقال الحارث: أيها الملك، إن الفارس إذا حمل على الكتيبة يقدم على الموت، فهي حياةٌ استدبرها ومنيّةٌ استقبلها، ومتى استَعَرت نارُ الحرب واشتدَّ لظاها، جعلتُ مَقادَها رُمحي، وبَرقَها سيفي، ورَعدَها زَئيري، ولم أقصِّر عن خَوْض ضَحْضاحها حتى أنغمس في غَمرات لُجَجها، فأَترك حُماتَها جَزْراً للسِّباع وكلِّ نَسْرٍ قَشْعَم.

فقال كسرى للقوم: أهكذا هو؟ قالوا: فعالُه أنطق من لسانه. فقال كسرى: ما رأيتُ كاليوم وفداً أحشد، ولا شُهوداً أرفد.

ثم قام عمرو بن مَعدي كَرِب فقال: إنما المرء بأصغَرَيْه: قلبه ولسانه. فاشْتَر طاعتَنا بفضلك[1]، واكظم بادِرَتَنا بحِلمك، وأَلِنْ لنا كَنفَك يَسلُس لك قيادُنا، فإنا أُناسٌ لم يكسر صفاتَنا قِراعُ مناقيرِ من أراد لها قضما، وقد مَنَعْنا حِمانا عن كل من أراد له هضماً.

ثم قام الحارث بن ظالم فقال: آفةُ المنطق الكذبُ، ومن لؤم الأخلاقِ الملقُ، ومن خَطَل الرّأي خِفَّةُ الملك المُسَلَّط، فإن أعلمناك أن مُواجهتَنا لك عن ائتلافٍ، وانقيادَنا لك عن إنصاف، ما أنت بقبول ذلك منا بخَليقٍ، ولا الاعتمادِ عليه بحَقيقٍ، ولكن الوفاءُ بالعهود، وإحكامُ العقود، والأمرُ بيننا وبينك مُعتدِلٌ، ما لم يَأتِ من قِبَلك مَيلٌ.

فقال كسرى: مَن أنت؟ قال: الحارثُ بن ظالمٍ، قال: إن في اسم أبيك دليلاً على

(١) في (ب) و(ك): بلطفك.

قِلَّة وفائك. فقال الحارثُ: الحِلم مع القُدرةِ، فلْتُشبه أفعالُك مجلسَك. فقال كسرى: هذا فتى القوم.

ثم قام قيسُ بن مسعودٍ فقال: أطاب الله لك المَراشِد، إنا لم نَقدم عليك لمُساماة، ولم نَنتسب لمُعاداة، ولا لنُسمِعَك ما يُخشن صَدرَك، ويَزرع لنا الحقدَ في قلبك، ولكن لتعلم ومَن حضرك من الوفود أنا في المَنطق غيرُ مُفحَمين، وفي البَأس غير مُقَصّرين، إن جُورينا فغيرُ مسبوقين، وإن سومينا فغيرُ مغلوبين.

فقال له كسرى: غير أنكم إذا عاهدتُم غيرُ موفين، يُعرِّض به في تركه الوفاء بضمانه السَّواد، فقال قيس: ما كنتُ في ذاك إلا كوافٍ غُدِر به.

ثم قام خالد بن جعفر فقال: أَرشدَ اللهُ المَلك إرشاداً، وزاده إسعاداً. إن لكلِّ مَنطقٍ فُرْصةً، ولكلِّ جابَةٍ[1] غُصّة، وعِيُّ المنطق أشدُّ من عيِّ السُّكوت، وعِثار القول أنكى من عِثار الوَعْث، وقد أوفَدَنا إليك ملكُنا النّعمان، وهو لك من خير الأعوان، ونِعم موضعُ المعروفِ والإحسان. أنفُسنا لك بالطاعة باخعة، ورقابُنا لك بالنَّصيحة خاضعة، وأيدينا لك بالوفاء رهينة. فقال كسرى: نطقْتَ بعقلٍ، وسَموتَ بفضلٍ.

ثم قام عَلقمة بن عُلاثَة فقال: نَهَجت لك سُبلُ الرَّشاد، وخضع لك العبادُ والبلاد. إن للأقاويل مناهج، وللآراء مَوالج، وخيرُ القول أصدقُه، وأفضلُ الطلب أَنجَحه. نحن وإن أَحضرَتْنا المحبَّة، فليس من حضرك منّا بأفضلَ ممن غاب عنك. فقال له كسرى: أبلغْتَ. وذكر كلاماً طويلاً.

ثم قام عمرو بنُ الشَّريد فقال: نَعِم بالُك، ودام في السُّرور حالُك، إن عاقبة الكلام مُتدَبَّرة، وأشكال النّظام مُعتَبرة، وهذا قول ما بعده شرفٌ[2]. إن في أموالنا مرتفداً، وعلى عِزِّنا المُعتَمد[3]، فلذلك لا نتعرّضُ لرِفدك، وتخلص نِيَّاتنا في قصدِك، ونحن مع هذا لجوارِك حافظون، ولمَن رامَك مُكافحون.

---

(١) في النسخ: جارحة، والمثبت من العقد الفريد ٢/ ١٥، والجابة هي الإجابة.

(٢) في العقد ٢/ ١٤: وهذا موطن له ما بعده، شرف فيه من شرف...

(٣) في النسخ: المنتقد.

فقال كسرى: قد فَهمتُ ما نَطق به خطباؤكم، وتَفنَّن فيه متكلِّمُوكم، وإني لأكره أن أَجْبَهَ وُفودِي، وأُحنِقَ صُدورَهم، وقد قَبلتُ ما كان في مَنطقكم من صوابٍ، وصَفحتُ عمّا كان فيه من خللٍ، فانصرفوا إلى مَلككم، والزَموا طاعتَه، وأَحسنوا مؤازَرَتَه. ثم وَصَلهم وسَرّحهم.

وأقام النعمان والياً على الحيرة ثلاثين سنةً. وكان له ابنتان: هند التي ذكرناها، وحُرَقَة بنتُ النعمان، وهي التي دخلت على سعد بن أبي وقاص ﷺ في فتوح القادسيَّة.

فصل

ولما قَتل أبرويز النعمانَ بن المنذر ولّى على الحيرة إياس بنَ قَبيصة الطائيّ، فأقام تسع سنين، ومات بعَين التَّمر، وفيه يقول زيد الخيل: [من الطويل]

فإن يكُ ربُّ العينِ خَلَّى مكانَه فكلُّ نعيمٍ لا مَحالةَ زائلُ[1]

ثم قُتل أبرويز وولي شيرويه، وجاء الإسلامُ.

فهؤلاء المشهورون من ملوك الحيرة، ومدّةُ أيّامهم أربع مئة سنةٍ، وقيل: ست مئةٍ، وقيل: ملك منهم ثلاثون مَلِكاً.

فصل

وحكى المَدائنيُّ أن الرابعَ من ملوك الحيرة الحارثُ بنُ عمرو، جدُّ امرىء القَيس ابن حُجْرٍ بن الحارث الكنديِّ، ولّاه قباذ. ومَلَّك الحارثُ ابنَه حُجْراً على بني أَسدٍ، وكان يأخُذُ منهم شيئاً معلوماً، فعَصَوه، فسار إليهم، فقتل سَرَواتهم بالعصا، فسُمُّوا عَبيدَ العصا، وأَسر منهم جماعةً، منهم عَبيد بنُ الأبرص الشاعر، ثم عفا عنهم ورَدَّهم إلى بلادهم.

وعَمرو بنُ الحارث هذا يقال له: ابن حُجْر آكلِ المُرار بن عَمرو بن معاوية بن الحارث الأكبر بن معاوية بن ثور بن مُرَتِّعٍ[2] بن معاوية بن كندة بن ثور. وإنما سُمِّي

(١) ديوانه ص٨٢، والمعارف ص ٦٥٠.

(٢) في (خ) و(ك): ربيع، والمثبت من (ب)، هذا والاختلاف في سياق النسب كبير، انظر طبقات فحول =

حُجْرٌ آكلَ المُرار؛ لأن السَّليحيَّ أغار عليه، فأخذ امرأتَه هند بنت ظالم بن وهبٍ بن معاوية الأكرمين فقال لها: كيف رأيتِ حُجْراً؟ فقالت: شديد الطّلب، حثيث الكَلَب، كأنه بعيرٌ أكل مُراراً، وهو نَبْتٌ حارّ[١] تتقلَّص منه شَفَة البعير.

فأقام على الحيرة مدَّة، فلما مات قباذ وولي أنوشِروان؛ وَلّى على الحيرة المُنذر بن ماء السَّماء، فهرب منه الحارث، واتَّبعتْه خيلُ المنذر ففاتَهم، فأدركوا ابنَيْه عَمْراً وحُجْراً فقتلوهما[٢].

فصل في ترجمة امرىء القيس بن حُجْر

وكان حُجْر قد طَرد ابنَه امرأ القيس لأجل عُنَيْزة، واسمُها: فاطمة، فإنه عشقها، وشَبّب بها في أشعاره، وعَرّض بالدَّخول وحَوْمل وتُوضِحَ والمِقْراة، وكل هذه أماكن بحوران وما والاها، وقيل بالعراق.

وقال الشعر، وبلغ أباه، فقال لعبدٍ له: اذهب فاقتُلْه، وائتِني بعينَيه، فذبح العبدُ شاةً، وجاءهُ بعينَيْها، فندم وبكى، فرقَّ له العبدُ وأخبره أنه لم يَقتُله، ففرح أبوه، وأعتقَ العبدَ وقال: عليَّ به، فجاء به، فاستَتابَه من قول الشعر، فقال: [من الطويل]

ألا انْعَمْ صباحاً أيُّها الطَّللُ البالي[٣]

فطرده، فغاب عنه مدةً، فلما قَتل المنذرُ أباه حُجْراً قال: ضَيَّعني صغيراً وحَمَّلني دمَه كبيراً. ثم آلى ألّا يأكلَ لحماً، ولا يشربَ خمْراً حتى يأخُذَ بثأر أبيه.

فخرج إلى قيصر ملك الروم مستصرخاً به على المنذر، فأكرمه وأنزله، فعشقَتْه ابنةُ قيصر، فكان يأتيها. وكان الطِّرمّاح بن قيس الأسدي الشاعر[٤] عند قيصر، فوشى به

= الشعراء ١/ ٥١، والشعر والشعراء ١/ ١١٤، والمؤتلف والمختلف ص ٥، والأغاني ٩/ ٧٧، وجمهرة ابن حزم ٤٢٧، وتاريخ دمشق ٣/ ٩١.

(١) في النسخ: وهو بيت حمار، وهو خطأ، والمثبت من تاريخ دمشق.

(٢) المنتظم ٢/ ١٣٨.

(٣) تمامه: وهل يَعِمَن مَنْ كان في العُصُر الخالي، وهو في ديوانه ص ٢٧.

(٤) كذا في النسخ وأصل المنتظم ٢/ ١٣٩ والمصنف ينقل عنه، وهو خطأ صوابه: الطمّاح بن قيس الأسدي، وليس بالشاعر، انظر الشعر والشعراء ١/ ١٠٩، ١٢٠، والأغاني ٩/ ٩٩، والكامل لابن الأثير ١/ ٥١٨، وديوان امرئ القيس ص ١٠٨.